

نافذة على عروبة الخليج العربي



خزان البترول العالمي، موطن الثروات ومسرح المغامرات، ملعب ابن ماجد وانباء السنديباد، الذين زرعوا البحار أشرعة بيضاء، واحالوا الصحاري واحات غناء... إن كثير من المورخين كانوا اذا ما سمّو الخليج قالوا: الخليج الفارسي أو خليج العجم، والمعنيان واحد، ولكن كان كثير منهم، وهم الأبعد نظراً والأعمق معرفة بالواقع الجغرافي وحقايق التاريخ، ينكرون هذه التسمية. ونحن نرى ان الأمر لا يعدو نقطة انطلاق خاطئة أو مغرضة، قفى على اثرها سياسيون مغرضون أو مقلدون جاهلون. أما ما يقوله التاريخ، وما تقصه علينا الجغرافية الطبيعية والبشرية، فتلك رواية ثانية .

أما الشطر الشرقي من الخليج ، وهو الآن فارسي بحكم السياسة وحدها، فأن له مع التاريخ والجغرافية البشرية موقفاً آخر وأول من انتبه الى هذه الحقيقة الصارخة، الرائد الدماركي كارستن نيبور الذي جاب الجزيرة العربية عام ١٧٦٢م (١١٧٦هـ) و خرج على العالم عام ١٧٧٢م (١١٨٦هـ) بمؤلف ضخيم هو أروع مغامرة من قصص الريادة وأدب الرحلات، طوال القرن الثامن عشر، وسبقى دائماً بضاعة حية من كبد الحقيقة. ولقد قال عن ذلك الساحل الشرقي في الصفحة الثامنة من كتابة: (رحلات في الجزيرة العربية و بلدان أخرى في الشرق): (الكنني لا أستطيع أن أمر بصمت مماثل، بالمستعمرات الأكثر أهمية، والتي رغم كونها منشأة خارج حدود الجزيرة العربية، هي أقرب إليها. أعني العرب القاطنين الساحل الجنوبي من بلاد الفرس، المتحالفين على الغالب مع الشيوخ المجاورين، او الخاضعين لهم، وتتفق ظروف مختلفة لتدل على أن هذه القبائل استقرت على الخليج الفارسي قبل فتوحات الخلفاء، وقد حافظت دوماً على استقلالها، ومن المضحك أن يصور جغرافيوناً جزءاً من بلاد العرب كأنه خاضع لحكم ملوك الفرس، في حين أن هؤلاء الملوك لم يتمكنوا قط من أن يكونوا أسياد ساحل البحر في بلادهم الخاصة، لكنهم حملوا، صابرين على مضمض، أن يبقى الساحل ملكاً للعرب).

وعاد نيبور الى التأكيد على هذا الموضوع في مكان آخر من كتابته وبتفصيل أكثر، فقال في الصفحتين ١٣٧-١٣٨: (لقد أخطأ جغرافيوناً، على ما أعتقد، حين صوروا لنا جزءاً من الجزيرة العربية خاضعاً لحكم الفرس، لأن العرب هم الذين يمتلكون، خلافاً لذلك، جميع السواحل البحرية للأمبراطورية الفارسية من مصب الفرات الى مصب الاندوس على وجه التقريب، صحيح ان المستعمرات الواقعة على السواحل الفارسية لا تخص الجزيرة العربية ذاتها، ولكن بالنظر الى انها مستقلة عن بلاد الفرس، ولأن لأهلها لسان العرب وعاداتهم، فقد عنيت بإيراد نبذة موجزة عنهم، يستحيل تحديد الوقت الذي أنشأ فيه العرب هذه المستعمرات على الساحل، وقد جاء في السير القديمة انهم أنشأوها منذ عصور سلفت، و اذا استعنا باللمحات القليلة التي وردت في التاريخ القديم، أمكن التخمين بأن هذه المستعمرات العربية نشأت في عهد أول ملوك الفرس، فهناك تشابه بين عادات

وعادات هؤلاء العرب. وهم قصوى شأن اخوانهم في شيخها. و هو لا يتقاضى بملك ثروة. توجب عليه أن رعاياه. اما بنقل البضائع أو القوم عن الشيخ الحاكم يحل محله. وطريقة الحكم يبدو ان لي شديدي الشبه بما القديمة. والأصطدامات تنفك تجري على سواحل عندهم يذيعون شهرتهم في



دائركي من القرن الثامن نضيف اليها شهادة مؤرخ هو رودريك اوين الذي زار الخليج سنة ١٩٥٧م كتاباً وثائق الخليج العربي) وقد روى

فيه انه زار الخليج العربي و هو يعتقد بأنه خليج فارسي لأنه لم ير على الخرائط الجغرافية سوى هذا الاسم. و لكنه ما كاد يتعرف اليه عن كذب حتى أيقن بأن الواقع والانصاف يقضيان بتسميته الخليج العربي ولهذا سمي كتابه بهذا الاسم. وفي ذلك يقول: (ما من خريطة انكليزية يظهر عليها الخليج العربي. وهو أمر يشغل خواطر أولئك الذين يقيمون فيه. ان على المسافر أن يتجه. كأنه ميمم شطر الخليج الفارسي. وقد يتبادر الى ذهنه انه في الخليج الفارسي حين يبلغ الكويت أو البحرين. و اذا به يسمع أن هذا الخليج في مكان لم يبلغه بعد. الخليج الفارسي؟ ان هذه المساحات الشاسعة من الرمال البنية. وتلك المياه الضحلة الزرقاء المترامية الاطراف وكل ما فوقها. ولا سيما كل ما تحتها. هي. وقد كانت. و ستظل. أجزاء لا تتجزأ من الخليج العربي. لقد كان هذا الأمر أحد الأمور العديدة التي لم أكن أعرفها حتى ذهبت الى تلك البلاد. و كان أول تعبير عن الرأي العربي سمعته. وقد تكرر على فترات طوال سنة ونيف من التنقل. حتى انني أجد الآن عناء في التفكير بأن هذا المكان خليج فارسي. وبما ان كتابي هذا تقرير عن رحلة سلكت فيها بعد الجهد الأولى. مسلماً بذلت فيه أقل ما يمكن من المقاومة. وتعمدت أن أحرم نفسي من القصد. وأردت أن أجرد ذاتي من الارادة. وأسلمت النتيجة الى يد الله. فليسوف أشير الى هذا الخليج اللاهب الرطب من العالم. كخليج فارسي ما قبل وصولي. و كخليج عربي ما بعد ذلك. لأن هذا ما يفرضه التأدب).

ماذا بقي لفارس من الخليج بعد هذا البيان الذي جرى على السنة رجال علم ومؤرخين ليس لهم أي غرض سياسي. ماذا بقي لفارس من الخليج والعرب يسكنون منذ قديم الزمان. نشاطية الشرقي والغربي. حتى وان كان سكان الساحل الشرقي قد فقدوا استقلالهم في العهود الأخيرة بفعل العدوان المحلي والمؤامرات الدولية؟ و في الواقع ان الفرس لم يكونوا يركبون البحر حتى في أوج عظمتهم. واذا ما انشأوا في الخليج اسطولا كان بحارته من غير الفرس. يقول الدكتور صلاح العقاد عن الساحل. الفارسي اسماً: (أما الساحل الشمالي الشرقي الذي يكوّن الآن الساحل الإيراني فيمتد على طول نحو الف كيلومتر. سلسلة عالية من الجبال الصعبة المنافذ الى الداخل. مما عزل سكان فارس والسلطة المركزية فيها عن حياة البحر. ولقد اشتهر الفرس منذ غابر الزمن بخوفهم من حياة البحار. حتى قال بعض المؤرخين العرب: ليس من الخليج شيء فارسي الا اسمه. و على ذلك فإن ذبوع اسم (الخليج العربي) الآن قد جاء موافقاً لحقيقة جغرافية ثابتة).

وقد وصف الدكتور حسين فوزي وصفاً بارعاً تلك العلاقات الوثيقة التي نشأت بين العرب والبحر منذ أقدم الأزمان وأعطت أطيب الثمار في كتابة (حديث السندباد القديم) الذي يقول فيه عن نشاط العرب البحري قبل الاسلام. بعد أن يتحدث عن الفتوحات العظيمة التي بدأت في حياة النبي (ص) وبعد وفاته مباشرة: (فتغلب العرب على الفرس منذ أواسط القرن السابع الميلادي. و واصلوا زحفهم في ناحية حتى وادي مهران في

الايشتيوفاجين القدماء يعشقون الحرية الى درجة البادية. ويكاد يكون لكل بلدة شيئاً من رعاياه. واذا كان لا يكسب رزقه بجده. كما يفعل بالصيد. واذا حدث ولم يرض خلعوه وانتخبوا من أسرته من عندهم. ووضعهم السياسي. كانت عليه بلاد الأغرقيق الدامية والثورات الخطيرة. لا الخليج. ولكن العرب لا مؤرخين ما وراء حدودهم الضيقة). و اذا كنا قد استشهدنا بمؤرخ عشر(نيبور) فلا بد من أن انكليزي من القرن العشرين العربي وأصدر عنه بعنوان:(الفقاعة الذهبية-

أ؟- المنطقة الشرقية: تتألف المنطقة الشرقية من ساحل ضيق تليه سلاسل جبلية عالية نسبياً تابعة لجبال زاغروس. وان كانت تبدو وكأنها امتداد لسلاسل جبال قفقاسية وأرمينية الموزعة في اتجاهات مختلفة. وتبدو هذه الجبال في قسمها الشرقي على شكل متوازيات. ثم تأخذ بالارتفاع كلما امتدت شمالاً. و تراوح ارتفاعها ما بين ٣٠٠٠ و ٥٥٠٠ قدم. الى ان تبلغ أعلى ارتفاعها. و هو ١٣ ألف قدم. ب؟- المنطقة الغربية: هي المنطقة التي تحدها شبه الجزيرة العربية في قسمها الشرقي. وتتوالى على شاطئها الامارات العربية من دولة الكويت الى عمان وبنيتها الاحساء السعودية (المنطقة الشرقية السعودية).

ت؟- المنطقة الشمالية: هي منطقة سهوب بلاد الرافدين جنوبي العراق وغربي بلاد عربستان. وهي سهوب رسوبية حديثة التكوين غنية بالثروة المائية. تنتشر في جنوبها واحات النخيل كما تتشكل فيها المستنقعات الفسيحة والأهوار الناجمة عن فيضانات دجلة والفرات. وهي منطقة خصبة تربي فيها قطعان الماشية لوفرة الكلاً والأعشاب فيها. ولا سيما ضفاف شط العرب. والسهول الساحلية في هذه المنطقة ضيقة نوعاً ما. و تمتد من جنوبي العراق الى جنوبي الأهواز المعروفة باسم عربستان .

ولعل من المفيد التنويه بأن مقاطعة خوزستان الإيرانية. كانت تسمى الى سنوات خلت من قبل الفرس (عربستان) أي (بلاد العرب). وقد سكنها قبل الاسلام قبيلتا بني كلب وبني نمر وهم قبائلها العربية اليوم آل كثير بنو طرف و بنو سالة وبنو لام وبنو مالك وبنو خالد وآل خميس و زبيد و ربيعة في الشمال. وبنو كعب وبنو تميم في الجنوب. و قد عدل

الفرس أخيراً عن تلك التسمية ليطلقوا على المقاطعة اسم خوزستان كما أطلقوا على قاعدتها (الحمرة) اسم (خرم شهر) و تغيير الأسم. و ان تلاعب على الواقع. لا يمكن أن يطمس الحقائق. وستظل عربستان بلاداً للعرب مادام هناك ذلك الشريان المائي الذي يحاذي تلك الريع ويساهم في اروائها: شط العرب. ولسوف تبقى عربستان التي طوتها امبراطورية البترول. خالدة في أذهان العرب. شأن كل قطر مغتصب. حتى يتم تحريكه. تذكركم دائماً ببطولات حكامها الشيخ خزعل الذي البارزين في عصرنا الحاضر. أمين الريحاني جلسة من انطباعة عن ذلك الأسد الذي الايرانيين.

نريد ان نذكر ايران بأن الحلم الذي يرواها بأقامة امبراطورية عظمى يكون الخليج بحرهما الوسط الخاص بها ، امر لا ينسجم مع روح العصر الذي قضى على الامبراطورات و هو في سبيل دك كل معقل من معاقل الاستعمار .

الأنسان العربي الأصيل: انه برمكي في كرمه، وفي ذوقه. حبه الأدب والشعراء... هو ذا

في زيارته بالحمرة. لسببين. أولهما لأن المتأدين يؤمون تلك السدة الشريفة وفي جيوبهم قصائد المديح الطنانة. ولست لسوء الحظ من يحسنون النظم ولا المديح الرسمي. و ثانيها انه حاكم بلاد أطلق عليها العرب في الماضي اسم الأهواز وهي اليوم عربستان من أعمال فارس. على أن رغبتني في الاجتماع بأمر عرفته من اخباره انه فيلسوف الامراء. بل فيلسوف الحياة العملية. كادت تغلب على أسباب التردد كلها. فوطنت النفس على أن أعرج على الحمرة فيعود تيمنا لبصرة...

وقد يحلو لبعض المؤرخين أن يرجعوا بنا الى ما قبل تاريخ الاسلام. و كيف انه أتى يوم على الجزيرة العربية سيطروا فيه على اليمن. كما بسطوا نفوذهم على منطقة الخليج. وليس هذا بعجيب. كما انه ليس من العسير الرد عليه. أجل لقد تمكن الفرس أيام الأكاسرة و امبراطوريتهم الساسانية أن يخضعوا بعض أطراف الخليج لنفوذهم. ولكنهم لم يتمكنوا من السيطرة على العرب. بدليل انهم تركوا حكمهم لأبناء جلدتهم المناذرة للخميين. أي كانت لهم الهيمنة الاسمية فقط. شأنهم في ذلك شأن الأمبراطورية العثمانية التي تعد الجزيرة العربية من ممتلكاتها. بينما كان العرب في الواقع حكام أنفسهم في ربوعهم المقدسة. وقد ذكر هيرودتس في صدد الكلام عن داريوس ما نصه: (ولقد اعترف بسلطانة جميع أقوام أسية الذين كان قد ذللهم كورش ثم قمبيز الا العرب. فهؤلاء لم يخضعوا البتة لسلطان فارس انما كانوا أحلافها. ولقد مهدوا لقمبيز سبيلاً لتوصل الى مصر. و لولا هم لما أمكنه القيام بهذه المهمة).

وأكبر دليل على استقلال اللخمين انه لما عقد الصلح الازلي بين بيزنطة وفارس في عام ٥٣٢م وجد الأمبراطور جوستينيان نفسه مضطراً لدفع التعويضات النقدية المباشرة الى المنذر بلاضافة الى كسرى.

تلك هي السيطرة الفارسية المزعومة. في فترة عابرة من فترات التاريخ. على بعض أطراف الجزيرة العربية. على حين أن المد العربي الذي ثل ملك الأكاسرة قد أدخل على الدولة الفارسية تغييراً جذرياً. ففرض عليها ديناً جديداً. وصبغها بصبغة مغايرة تماماً يمثلها واعتقاداتها وعاداتها وآدابها - بالنسبة الى ما كانت عليه قبل الاسلام. ناهيك عن أن العرب ظلوا حكام الساحل الشرقي من منطقة الخليج الى أيام قبيلة جداً. وما زالوا حتى الآن يؤلفون في تلك المنطقة أغلبية السكان . ونحن لا نذكر ذلك اعتداداً وتفاهراً. ففي تاريخ الشعوب مدّ وجزر. وانما نريد ان نذكر ايران بأن الحلم الذي يرواها بأقامة امبراطورية عظمية يكون الخليج بحرهما الوسط الخاص بها . امر لا ينسجم مع روح العصر الذي قضى على الامبراطورات و هو في سبيل دكّ كل معقل من معاقل الاستعمار .

المصادر والهوامش

- ١- الخليج العربي بحر الاساطير-قديري قلعجي-بيروت
- ٢- Owen:The Gollen Arabian Gulf Documentary. P.13 Roderic
- ٣- تاريخ الكويت السياسي-حسين الشيخ خزعل الجزء الثالث ص ٨٧
- ٤- ملوك العرب الجزء الثاني ص ١٩٧-٢٠٠ امين الريحاني
- ٥- تاريخ العرب ، الدكتور فليب حتى الجزء الاول ص ٥٠
- ٦- الفتوحات العربية الكبرى - الجنرال غلوب ص